تحولات السيميائية عند الجاحظ في كتابه(البيان والتبيين).

أ.م.د. إسراء إبراهيم محمد سبع الخزرجي
جامعة ديالى – كلية التربية للعلوم الإنسانية

Semiotic Transformations in Al-Jahiz's Book "Al-Bayan wa Al-Tabyeen"

Assistant Professor Dr.
Israa Ibrahim Mohammed Saba Al-Khazraji
University of Diyala - College of Education for Human Sciences

https://doi.org/10.64704/dawat.2026124812

ملخص البحث

يتناول هذا البحث التحولات السيميائية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، الذي يُعد أحد أهم مصادر التراث العربي في البلاغة واللغة. يبدأ البحث بتعريف مفهوم البيان عند الجاحظ، ويسعى البحث من ذلك إلى إبراز موقع الجاحظ في الخارطة الفكرية العالمية، وإلى إثبات أن التراث العربي يمتلك جذورًا معرفية أصيلة قادرة على إثراء الدرس النقدي واللساني المعاصر، و يُعدُّ كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من أهم المراجع التي أسست لعلم البلاغة واللغة في التراث العربي الإسلامي. حيث تناول فيه الجاحظ اللغة بوصفها نظامًا معقدًا للإفهام، مشيرًا إلى أن البيان يشمل كل الوسائل التي تكشف المعنى وتوصل المقصود إلى المتلقي ،وتكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة في تسليط الضوء على البُعد السيميائي في هذا الكتاب، إذ يمكن عدّه مدخلاً مبكرًا لفهم العلامات والأنظمة الدلالية التي يستخدمها الإنسان في التعبير والتواصل. من هنا، فإن هذه الدراسة لا تقتصر على قراءة نصوص البيان والتبيين، بل تعمل أيضًا على مقاربة موازنة بين ما طرحه الجاحظ وما توصلت إليه السيميائيات الحديثة، لتؤكد أن الفكر العربي الإسلامي لم يكن معزولًا عن المسارات الكبرى لتطور المعرفة الإنسانية، بل كان مشاركًا فيها ورافدًا مهمًا من روافدها. حيث يجعله نظامًا شاملاً لا يقتصر على الكلام المنطوق، بل يشمل الوسائل التي تكشف المعنى كافة، مثل الإشارة، والعقد، والخط، والنصبة. ويستعرض البحث بالتفصيل الأنظمة الخمسة للدلالة التي حدّدها الجاحظ في كتابه، ويشرح كيف أسهم كل منها في بناء نظام اتصال متكامل يعكس عمق التجربة اللغوية والثقافية للعرب في عصره. كما يقدم البحث تحليلًا تطبيقيًا لهذه الأنظمة، مستشهداً بنماذج مختارة من نصوص البيان والتبيين، مما يبرز إبداع الجاحظ في الجمع بين الجانب النظري والتطبيقي. ويناقش البحث أيضًا التحولات التي طرأت على الفكر السيميائي عند الجاحظ ، حيث ينتقل الفكر من الشمولية في فهم العلامة إلى تصنيفات أكثر تخصصًا ودقة، مع توسع أبعاد التحليل لتشمل النفسي والاجتماعي والثقافي. ويشير البحث إلى الدور

المحوري الذي لعبه الجاحظ في تأسيس أُسس السيميائية في التراث العربي، كما يؤكد أهمية إعادة قراءة هذا التراث عبر أدوات ومناهج حديثة تواكب التطورات العلمية المعاصرة.

مفتاح الكلمات : السيميائية، التحولات، البيان ، التبيين.

Abstract

This research examines the semiotic transformations in Al-Jahiz›s book «Al-Bayan wa Al-Tabyeen,» which is considered one of the most important sources of the Arab heritage in rhetoric and language. It begins by defining the concept of eloquence according to Al-Jahiz, and through this, it seeks to highlight Al-Jahiz›s position on the global intellectual map and to demonstrate that the Arab heritage possesses authentic epistemological roots capable of enriching contemporary critical and linguistic studies. Al-Jahiz›s book «Al-Bayan wa Al-Tabyeen» (d. 255 AH) is considered one of the most important references that established the science of rhetoric and language in the Arab-Islamic heritage. In it, Al-Jahiz addresses language as a complex system of understanding, indicating that eloquence encompasses all means that reveal meaning and convey the intended message to the recipient. This study is particularly important in highlighting the semiotic dimension in this book. It can be considered an early introduction to understanding the signs and semantic systems used by humans in expression and communication. Therefore, it is not limited to reading the texts of Al-Bayan wa Al-Tabyeen, but also employs a comparative approach between what Al-Jahiz presented and the findings of modern semiotics. This approach affirms that Arab-Islamic thought was not isolated from the major trajectories of the

development of human knowledge, but rather contributed to them and was a significant tributary of them. Al-Jahiz presents a comprehensive system that is not limited to spoken language, but includes all means of revealing meaning, such as gestures, knots, writing, and monuments.

The research examines in detail the five systems of signification identified by Al-Jahiz in his book and explains how each contributed to building an integrated communication system that reflects the depth of the linguistic and cultural experience of the Arabs in his era. It also provides an applied analysis of these systems, citing selected examples from the texts of Al-Bayan wa Al-Tabyeen, thus highlighting Al-Jahiz›s ingenuity in combining the theoretical and applied aspects. Further, the study discusses the transformations that occurred in Al-Jahiz›s semiotic thought, as his thinking moved from a comprehensive understanding of the sign to more specific classifications. With specialization and precision, the research expands the dimensions of analysis to include the psychological, social, and cultural. It highlights the pivotal role played by Al-Jahiz in establishing the foundations of semiotics within the Arab intellectual tradition, and emphasizes the importance of re-reading this tradition using modern tools and methodologies that keep pace with contemporary scientific developments.

Keywords: Semiotics, Transformations, Eloquence, Clarification.

المقدمة

تحتل السيميائية موقعًا محوريًا في الدراسات النقدية واللسانية المعاصرة، إذ تُعنى بدراسة العلامات والرموز وأنظمة الدلالة التي يعتمد عليها الإنسان في التعبير والتواصل. وإذا كانت السيميائية الحديثة قد تأسست في الغرب مع فرديناند دي سوسير وتشارلز بيرس في مطلع القرن العشرين، فإن التراث العربي كان قد أسّس قبل ذلك بقرون طويلة لنظرة شمولية للعلامة والدلالة، تجلت بوضوح في كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

يُعد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) واحدًا من أعلام الفكر العربي والإسلامي، حيث جمع بين البلاغة والفلسفة واللغة، ووضع تصوّرات عميقة حول مفهوم البيان بوصفه نظامًا شاملًا يتجاوز حدود اللغة المنطوقة ليشمل مختلف الوسائل التي تفضي إلى كشف المعنى. وقد حدد في كتابه خمسة أنظمة للدلالة: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والنصبة، مما يجعله رائدًا في التفكير السيميائي قبل ظهوره بصفة ميدان علمي مستقل.

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يسعى إلى تتبّع تحولات السيميائية عبر إشارات الجاحظ في البيان والتبيين، للكشف عن كيفية تطور مفاهيم العلامة والدلالة في الفكر العربي، وكيف أن الجاحظ قدّم تصوّرات أولية تتقاطع مع ما انتهت إليه الدراسات السيميائية الحديثة من تنظير وتطبيق. كما يهدف البحث إلى إبراز أن ما طرحه الجاحظ لم يكن مجرد تنظير بل كان ممارسة عملية في الخطاب، إذ جسد من أمثلته ونصوصه وقراءاته وعيًا مبكرًا بأهمية العلامة في صياغة الفكر والتأثير في المتلقي.

كما يولي البحث اهتمامًا خاصًا بمفهوم التحولات، الذي يُقصد به التغيرات التي طرأت على الفكر السيميائي عبر الزمن، بدءًا من الرؤية الشمولية للجاحظ، وصولًا إلى النظريات الغربية الحديثة التي أعادت تصنيف العلامات وفق أبعادها الأيقونية والمؤشرية والرمزية.

المبحث الأول: أنظمة الدلالة الخمسة في البيان والتبيين وعلاقتها بالسيميائية

قسم الجاحظ البيان على خمسة أنظمة رئيسية: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والنصبة[١]. فاللفظ هو أداة التعبير الأساسية في التواصل، ويتطلب حسن اختيار الألفاظ ودقتها لتوصيل المعنى بوضوح[٢]. أما الإشارة فهي وسيلة مكملة للكلام، يمكن أن تحمل دلالات واسعة تتجاوز حدود الكلام المباشر[٣]. والعقد نظام حساب بالأصابع، ويعكس أبعادًا عملية واجتماعية في حياة العرب، خصوصًا في المعاملات المالية [٤]، والخط يمثل وسيلة توثيق المعارف وتداولها بين الأجيال، ويعدّ بديلاً للكلام الشفهي في حفظ المعلومات [٥]،والنصبة هي العلامة أو الرمز الذي يدل على معنى محدد، مثل الرايات أو العلامات الاجتماعية، وتعكس بعدًا ثقافيًا في المجتمع[٦]. و يُعد مفهوم الإشارات في فكر الجاحظ من الركائز الأساسية التي تعكس رؤيته العميقة للعالم والأدب، حيث لم يقتصر نظره على الظواهر السطحية وإنما عمد إلى تحليل العلامات والدلالات التي تحملها الأدلاء والألفاظ والكلمات. اعتمد الجاحظ على فكرة أن الإشارة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل تعد مفتاحًا لفهم المعاني والأفكار الكامنة وراء النصوص، مما يتطلب ذكاءً ثابتًا ودراية عميقة بجوانب الثقافة واللغة. فقد أدرك أن النصوص ليست معزولة عن السياق الثقافي واللغوي، وأن الإشارات بين يدي القارئ أو المتلقي تمثل شبكة معقدة من العلامات التي تتداخل لتخلق دلالات متعددة الأوجه.[٧]

فالفكر الجاحظي يعكس في جوهره رؤية أن الإشارات ليست مجرد رموز ثابتة، بل تتغير وتتطور وفقًا لتطور المفاهيم الاجتماعية والثقافية، مما يضعها في مركز تفكير العلماء والدارسين للمواقف الأدبية والفكرية. ويقف الجاحظ عند مفهوم الرمز بوصفه عنصرًا مهمًا يحمل دلالات أعمق، إذ يربط بين العلامة والرمز في علاقات تسمح بفهم أوسع للمعاني، حيث إن الرمز يوصل معاني تتجاوز الظاهر، وتكشف عن أبعاد خفية تتصل بالوجدان والمعتقدات. في هذا السياق، تأتي قيمة الإشارات

في حديثه من كونها أدوات بيد المفكر والأديب لتفسير النصوص وتحليلها، فهي ليست مجرد إشارات عابرة، وإنما مفاتيح لفهم تفاعلات العلاقة بين الإنسان والنصوص، وبين النصوص وأبعادها الثقافية والدينية. لذلك، يمكن القول إن الجاحظ وظف مفهوم الإشارة كوسيلة لفك شفرة النصوص، وتحليل رموزها، واستكشاف طبقات المعنى فيها، مما يوصلنا إلى تصور أكثر عمقًا وإدراكًا للرؤية السيميائية التي دافع عنها في مجمل أفكاره، مجسدًا بذلك بدايةً مهمة لفهم تطور مفهوم العلامة والرمز في التراث العربي والإسهامات الكبرى التي قدمها في مجال السيميائية قبل أن تتطور لاحقًا في الأطر الغربية [٨].

فيسلط الجاحظ الضوء على أهمية الإشارة بوصفها وسيلة تعبير تكمل الكلام، حيث يرى أن الإشارة قد تكون أبلغ أحيانًا من الكلمات، وتُعبر عن مشاعر وأفكار قد لا تُقال صراحةً، مما يجعلها أداة ذات دلالة عالية في التواصل[٩]. وكيف استخدمت الإشارة في تقريب المعنى، وقد تُستخدم الإشارة لتوضيح المعاني وتقريبها من الذهن، إذ قد تشير حركة بسيطة إلى معنى مركب أو رمزي في السياق الاجتماعي والثقافي، مما يعزز الفهم ويسهل التواصل[١٠]. ثم العقد في الحياة الاقتصادية،ويُبيّن الجاحظ كيف يُستخدم نظام العقد (الحساب بالأصابع) كأداة عملية في الحياة اليومية والمعاملات الاقتصادية، مؤكّدًا أهميته في تيسير التواصل العددي بين الناس [١١].

الخط وحفظ المعرفة: يرى الجاحظ أن الخط وسيلة حيوية لتوثيق المعرفة وحفظها، حيث إن الخط يمكن أن يغني عن اللفظ الشفهي في نقل المعلومات عبر الأزمان، مما يعزز من استمرارية الحضارة والثقافة [١٢].

وتُعدُّ النصبة لدى الجاحظ علامة رمزية تحمل دلالات اجتماعية ودينية، مثل الرايات والعلامات التي تُستخدم في ميادين القتال أو المناسبات الاجتماعية، وهي تعكس ثقافة المجتمع وروح الانتماء[١٣].

ويستخدم الجاحظ العلامات والأمثال كوسائل لتعزيز قوة الخطاب وإقناعه، فهو لا يكتفي بالكلام المجرد

بل يلجأ إلى الدلائل والرموز التي ترفع من مستوى البلاغة وتدعم الحجاج [١٤]. يشير هذا إلى وعي الجاحظ العميق بأهمية العلامات السيميائية في بناء خطاب مقنع وفعّال [١٥].

وتتأثر رؤية الجاحظ للبيان واللغة بالسياق الثقافي والاجتماعي الذي عاش فيه، حيث كانت مجالس الحكمة والبلاغة ساحة لتبادل الأفكار والنقاشات الحادة، مما دفعه لتطوير منظومة تعبر عن الواقع بعمق [١٦]، وهذا يعكس أن السيميائية عند الجاحظ ليست مجرد نظرية لغوية، بل أداة لفهم العلاقات الاجتماعية والمعرفية [١٧]، وإذا ما قارناها مع السيميائيات الحديثة فيمكن ملاحظة تشابه بين تصنيف الجاحظ لأنظمة الدلالة ونظريات السيميائية الحديثة، مثل نظرية دي سوسير التي تركز على العلاقة بين الدال والمدلول، ونظرية بيرس التي تميز بين الأيقونة والمؤشر والرمز، وهذا يشير إلى أن الجاحظ سبق هذه النظريات بزهد قرون، موفراً إطارًا أوليًا للسيميائية في الثقافة العربية [١٨]، ومن تحليل نصوص مختارة من البيان والتبيين، يظهر كيف تتداخل العلامات اللفظية وغير اللفظية في تكوين المعنى، مما يجعل الكتاب نموذجًا فريدًا في دراسة السيميائية في التراث العربي [١٩].

فالجاحظ من أوائل من نظروا إلى اللغة والبيان بوصفها نظامًا شاملًا للعلامات، وهو ما يوازي إلى حد بعيد توجهات السيميائية الحديثة عند دي سوسير وبيرس، لكن مع خصوصية عربية [٢٠]، وكان لكتاب البيان والتبيين أثرٌ بالغ في تشكيل البلاغة العربية، حيث وضع الجاحظ أسسًا لتحليل العلامات والرموز في الخطاب، وأسس لمفاهيم البلاغة التي لا تقتصر على الكلام فقط بل تشمل كل ما يكشف المعنى [٢١].

وقد شهدت الدراسات النقدية الحديثة اهتمامًا متزايدًا بالجاحظ، حيث عدّه الباحثون نموذجًا رائدًا للسيميائية العربية، ودرسوا كتابه بوصفها مصدرًا مهمًا لفهم العلامة واللغة في التراث [٢٢]، ويقترح الباحثون إعادة النظر في البيان والتبيين من منظار السيميائية الحديثة لتوسيع فهم العلامة والدلالة، مؤكدين أن أفكار الجاحظ تبقى حية وقابلة

للتطوير في الدراسات اللسانية والبلاغية [٢٣]، وتفتح هذه الدراسة آفاقًا جديدة للبحث في التراث العربي باستخدام أدوات السيميائية الحديثة، مما يتيح إمكانية دمج التراث بالنظريات المعاصرة لتقديم رؤى نقدية جديدة[٢٤]، فالتحولات للفكر السيميائي من الجاحظ إلى العصر الحديث تعني التغيرات والتطورات التي طرأت على فهمنا لمفهوم العلامة والبيان وأساليب الدلالة عبر الزمن. وتشمل هذه التحولات التنقل من المفاهيم الشاملة القديمة إلى تصنيفات أكثر تخصصًا وتحليلًا دقيقًا للعلامات، بالإضافة إلى توسع نطاق الدراسات السيميائية لتشمل أبعادًا نفسية واجتماعية وثقافية.

إن فهم هذه التحولات يساعد في استيعاب كيفية تفاعل التراث العربي مع الفكر الحديث، وكيف استطاعت مفاهيم السيميائية أن تتطور لتلبي متطلبات العصر، دون أن تفقد جذورها التاريخية [٢٥].

فحين قدم الجاحظ رؤية شمولية للعلامة بوصفها كل وسيلة تكشف المعنى، جاءت الدراسات السيميائية الحديثة لتخصص هذا المفهوم. على سبيل المثال، نظرية دي سوسير (١٩١٦) قدّمت مقاربة ثنائية (دال ومدلول) تركز على العلاقة النفسية بين العلامة وما تدل عليه. أما تشارلز بيرس (١٩٣١) فقد قسم العلامات إلى: أيقونات: تشبه الشيء الذي تدل عليه، ومؤشرات: مرتبطة بالشيء بشكل سببي أو فعلي، ورموز: تعتمد على الاتفاق الاجتماعي[٢٦].

هذا التخصص سمح بفهم أعمق للعلامات داخل النصوص والخطابات، مما شكل تحولًا نوعيًا في الفكر السيميائي بعد الجاحظ، وبذلك بعد الجاحظ، استمر التراث العربي في تطوير مفاهيم العلامة والبيان، خاصة في كتابات ابن جني وابن خلدون، الذين أضافوا أبعادًا تحليلية جديدة مرتبطة بالسياقات الاجتماعية والسياسية [٢٧].

وفي العصر الحديث، بدأ الباحثون العرب يعيدون قراءة التراث السيميائي العربي ضمن إطارات حديثة، مفيدين من أدوات السيميائية البنيوية والتداولية، لتفسير النصوص الأدبية

والبلاغية بشكل أكثر دقة [٢٨].

لقد أدت هذه التحولات إلى تحول جوهري في مناهج النقد الأدبي واللساني في العالم العربي، حيث صار التركيز ينصب على تحليل العلامات والأنظمة الدلالية داخل النص، مع إدراك تأثير السياق الاجتماعي والثقافي على التلقي والتأويل [٢٩]، وهذا يتوافق مع رؤية الجاحظ التي تؤكد تعدد مستويات الدلالة وأشكال البيان، مما يجعل دراسته أساسية لفهم أصول هذه التحولات.

وتمثل تحولات الفكر السيميائي من الجاحظ إلى العصر الحديث فرصة لإعادة تقييم التراث العربي بطريقة تدمج بين الأصالة والمعاصرة. إذ يمكن استخدام نظريات السيميائية الحديثة كأدوات نقدية لفهم النصوص التراثية، كما يمكن استلهام تصورات الجاحظ لتوسيع نطاق هذه النظريات بما يتناسب مع خصوصية الثقافة العربية [٣٠].

يُظهر هذا الدمج قدرة التراث على التجدد والاستمرار في التأثير، ويطرح آفاقًا بحثية جديدة تتعلق بتحليل العلامات في الأدب والفنون والثقافة بشكل عام [٣١].

وتُظهر الاستنتاجات المستخلصة من السيميائية الجاحظية أن فهم النصوص وتحليلها يتطلب رؤية عميقة لعلاقات العلامات والإشارات، إذ يُعد الجاحظ من أوائل العلماء الذين أدركوا أهمية الرمز والدلالة في تشكيل المعاني، مع التركيز على أن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل المعلومات بل نظام يحمل إشارات رمزية يمكن تفسيرها وفهمها بشكل متعدد المستويات. لقد اسهمت دراسات الجاحظ في تطوير أدوات تحليلية تعتمد على مراقبة الاستخدامات الرمزية داخل النصوص، بما يعزز قدرة الباحث على كشف الأبعاد الثقافية والنفسية وراء التعبيرات الأدبية والفكرية. كما أن تحليله للإشارات يبرز التأثير الذي يمكن أن يمتد من النص إلى العقل الباطن، موضحاً كيف تتداخل المعاني وتتفاعل مع المفاهيم القيمية والاجتماعية. ودلّت مواقفه على أن السيميائية ليست منهجاً مجرداً، بل أداة لفهم أعمق لطبقات النصوص، خاصة تلك التي تتسم بالرمزية والإشارات الضمنية، مما يسهل إحياء التراث العربي

وتوظيفه في القراءة المعاصرة. علاوة على ذلك، أبانت استنتاجاته أن التحولات التاريخية أثرت بشكل جذري في تطور المفاهيم السيميائية، حيث تطورت عبر العصور من أدوات تحليلية بسيطة إلى منهج متعدد الأبعاد يدمج بين الفنون والعلوم، مع مقاومة التحديات المعاصرة عن طريق استنبات أساليب نقدية حديثة تبتعد عن الجمود. من استقراء فكر الجاحظ، يتجلى أن السيميائية ليست مجرد تحديد أدوات، بل رؤية متكاملة تربط بين الفنون، والأدب، والنفس، وتوفر قاعدة قوية للفهم العميق للمعنى، معتمدة على الترابط بين الرموز والدلالات بشكل يعكس تفاعلية النص ومكانة اللغة والإشارات في تشكيل الحضارات. وبذلك، فإن دراسات الجاحظ تمثل مرجعية أساسية للنظر في تطور السيميائية، وتوقع مستقبلها في سياقات متعددة تتناغم مع تفاعلات الثقافة، والفكر، والعلوم الإنسانية بشكل عام.

المبحث الثاني/ التحولات السيميائية عند الجاحظ.

اعتمدت الدراسة على المنهج السيميائي، الذي يجمع بين تحليل البنية الداخلية للنص (المستوى التركيبي والدلالي) وتحليل أنظمة العلامات ووظائفها. وتم اختيار نماذج نصية من البيان والتبيين تمثل أنماطًا مختلفة من تحولات العلامة، مع تصنيفها وفق سبعة أنواع من التحولات:

١. تحول الدلالة.
٢. تحول البنية.
٣. تحول الوظيفة.
٤. تحول الوسيط.
٥. تحول السياق.
٦. تحول الأسلوب.
٧. تحول التأويل.

أولاً/ تحول الدلالة.

الأنموذج الأول: تحول الدلالة من المعنى الحرفي إلى المجازي.

في قوله: «وللإشارة موضع إذا أفادت فهي أبلغ من اللفظ»[٣٢]، يوضح الجاحظ أن العلامة الإشارية يمكن أن تحمل دلالات أعمق من الكلام نفسه،

وهو ما يتوافق مع ما يسميه بيرس بـ «المؤشرات» التي تكتسب معناها من السياق[٣٣]. هنا تتحول الدلالة من المستوى الحرفي المباشر (الإشارة بوصفها فعلًا جسديًا) إلى المستوى المجازي (الإشارة بوصفها حاملة لمعانٍ ثقافية أو نفسية).

الأنموذج الثاني: تحول الفصاحة الصوتية إلى الفصاحة الدلالية.

يقول الجاحظ: «ليس البلاغة أن يكون اللفظ فصيحًا في نفسه، ولكن أن يكون مع ذلك موافقًا للمعنى، ومطابقًا للمقام، ومؤدِّيًا إلى الغرض الذي أريد به»[٣٤]، وفي هذا النص، يميّز الجاحظ بين الفصاحة بوصفها خاصية صوتية أو جمالية في اللفظ، وبين الفصاحة بوصفها قدرة على نقل المعنى بوضوح ودقة. هذا التحول يشير إلى انتقال من البنية الصوتية للعلامة إلى البنية الدلالية، وهو ما يجعل البلاغة في منظور الجاحظ أداة وظيفية قبل أن تكون شكلية[٣٥].

وفق الرؤية السيميائية الحديثة، فإن الجاحظ يربط بين الدال والمدلول في علاقة عضوية، بحيث لا قيمة للدال إذا لم يؤدِ إلى مدلول محدد بوضوح[٣٦].

وهذا ما يماثل ما ذهب إليه سوسير لاحقًا في ربطه بين البنية الصوتية والدلالة في نسق العلامة اللغوية[٣٧].

الأنموذج الثالث: التحول من حصر البيان في اللفظ إلى شموله العلامات غير اللفظية.

يقول الجاحظ: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقة المعنى. والبيان يكون باللفظ، ويكون بالإشارة، ويكون بالعقد، ويكون بالنقش، ويكون بالوشم، ويكون بما عقدته يدك من عدد أو أومأت به من إشارة، بل إن للعيون والوجوه، بل للإصبع والحاجب والمنكب، كل ذلك بيان. ومن البيان ما يكون في خلق الإنسان وهيئته، وفي ثيابه وزينته، حتى أنَّ هيئة الجالس في مجلسه قد تغنيك عن سؤاله، وتخبرك عن مكانته قبل أن يتكلم»[٣٨].

في هذا النص ينتقل الجاحظ من الرؤية البلاغية الضيقة التي تحصر البيان في اللغة الملفوظة إلى رؤية أوسع

ترى البيان نظامًا متكاملًا من العلامات اللغوية وغير اللغوية. فهو يساوي بين الكلمة المنطوقة والإشارة باليد أو بالعين أو بالإصبع، ويعترف بالعلامات الجسدية والمظهر الخارجي والثياب بوصفها وسائل تواصل تحمل دلالات ومعاني.

هذا التوسيع لمفهوم البيان يوازي ما تسميه السيميائية الحديثة بـ التعدد الوسائطي (Multimodality)، أي دراسة جميع أشكال التعبير التي تُستخدم لإنتاج المعنى، سواء أكانت لغوية أم بصرية أم حركية[٣٩].

كما يتوافق مع ما ذهب إليه بيرس في تقسيم العلامات إلى:

أيقونات: تشبه مدلولاتها في الشكل، مثل النقش والصورة.

مؤشرات: تدل على مدلولاتها بعلاقة سببية أو مجاورة، مثل حركة الحاجب أو المنكب.

رموز: تعتمد على العرف والاتفاق، مثل اللغة المكتوبة أو العقد بالأصابع[٤٠].

فضلا عن ذلك، يلفت الجاحظ إلى البعد السياقي للعلامة، إذ يرى أن هيئة الجالس في مجلسه أو زينته قد تحمل رسالة واضحة عن مكانته أو مقصده قبل أن ينطق بكلمة واحدة. وهذا يعكس وعيًا مبكرًا بفكرة أن المعنى لا يتولد من العلامة وحدها، بل من علاقتها بالوضعية الاجتماعية والثقافية التي تحيط بها[٤١].

يمكن القول إن هذا النص يمثل تحوّلًا جوهريًا من البيان بوصفه فنًا لغويًا إلى البيان بوصفه نظامًا شاملًا للعلامات، وهو ما يضع الجاحظ في مصافّ المفكرين الذين سبقوا زمنهم في إدراك طبيعة الاتصال الإنساني كعملية متعددة الرموز والوسائط.

الأنموذج الرابع: التحول من النظرة الثابتة للدال والمدلول إلى إدراك تغير المعنى باختلاف السياق.

يقول الجاحظ: «واللفظ إنما يَشْرُف ويَهُون، ويَحْسُن ويَقْبُح، في معنى الكلام الذي يَجْري فيه، وفي موضع الحال التي يُقال فيها، فإن الكلمة الواحدة لتكون في موضع أليق بها منها في موضع آخر، كما أن الثوب نفسه قد يليق بإنسان

ولا يليق بآخر، ويصلح لوقت ولا يصلح لغيره» [٤٢].

ينقض الجاحظ في هذا النص التصور الساذج للغة بوصفها نظامًا من الدوال والمدلولات ذات العلاقة الثابتة والمطلقة. فهو يقرر أن قيمة اللفظ — جمالًا أو قبحًا، شرفًا أو هوانًا — تتحدد بحسب المعنى الذي يُستعمل فيه وبحسب السياق الذي يرد فيه. وهذا الموقف ينسجم مع النظرة السيميائية الحديثة التي ترى أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست مطلقة، بل تتأثر بالبيئة التداولية والظروف الاجتماعية والنفسية التي تحيط بعملية التواصل [٤٣].

المثال الذي يورده الجاحظ عن الكلمة التي قد تلائم موضعًا ولا تلائم آخر يشبه في جوهره ما يسميه اللغويون المعاصرون بـ الملاءمة السياقية (Contextual Appropriateness)، وهو مبدأ أساسي في التداولية والسيميائيات الاجتماعية [٤٤].

كما أن تشبيهه الكلمة بالثوب الذي يليق بشخص أو مناسبة دون أخرى يعكس إدراكه أن المعنى ليس صفة جوهرية للكلمة، بل خاصية دينامية تتشكل عبر السياق، تمامًا كما تتشكل دلالة اللباس في إطار ثقافي واجتماعي محدد. يُظهر هذا التحول أن الجاحظ لا يكتفي بوصف اللغة كأداة نقل، بل يفهمها بوصفها نظام علامات يتغير معناه تبعًا للعوامل الخارجية، ما يجعله أقرب إلى تصورات دي سوسير عن الاعتباطية النسبية للعلامة وهاليداي عن المعنى التداولي الذي يحدده الموقف والخطاب [٤٥].

الأنموذج الخامس: التحول من فهم النصوص بوصفها كيانات لغوية مغلقة إلى النظر إليها بصفة نصوص مفتوحة متعددة الدلالات.

يقول الجاحظ: «وقد ترى الرجل يُحدّث بالحديث فيسمعه السامع فيأخذه على غير وجهه، ويزيد فيه وينقص، ويغيّر بعض ألفاظه، وربما أبدل كلمة مكان كلمة، فإذا صار الحديث إلى سامع ثالث زاد فيه ما لم يكن، وحذف منه ما كان، وهكذا حتى يصير المعنى إلى ضد ما كان عليه أو قريب من ذلك، وليس هذا

إلا لاختلاف الأفهام وتفاوت العقول، ولأن الكلام إذا فارق صاحبه صار في حكم المِلْك المشاع، يتصرف فيه من شاء بما شاء» [٤٦].

في هذا النص العميق، يكشف الجاحظ عن وعي مبكر بمفهوم انفتاح النص (Textual Openness) الذي أصبح من ركائز الفكر السيميائي المعاصر، خاصة عند أمبرتو إيكو. فهو يصف كيف أن المعنى يتعرض لتحولات جوهرية بمجرد أن يغادر النص سلطة مؤلفه، ليصبح ملكًا مشاعًا للتأويلات المتعددة التي يفرضها تنوع الأذهان والخبرات.

فالجاحظ هنا يفكك التصور الكلاسيكي القائل بأن المعنى واحد وثابت، ليؤكد أن النص كيان حيّ يتشكل دلاليًا من عملية التلقي، وأن اختلاف القراء أو المستمعين يؤدي إلى تعدد في إنتاج المعنى، بل أحيانًا إلى انحرافه نحو دلالات مخالفة أو حتى مناقضة للأصل [٤٧].

هذا الموقف يقارب ما تسميه السيميائيات الحديثة بلا نهائية التأويل (Unlimited Semiosis) كما عند بيرس، حيث العلامات تفتح المجال أمام علامات جديدة لا نهائية بفعل التفسير المستمر [٤٨].

كما أن فكرة الجاحظ عن «ملكية النص المشاعة» تماثل مبدأ موت المؤلف عند رولان بارت، الذي يرى أن سلطة النص تنتقل من المؤلف إلى القارئ، وأن المعنى ليس مُعطًى جاهزًا بل نتيجة تفاوض دلالي بين النص ومتلقيه [٤٩].

إدراك الجاحظ لهذه الدينامية يثبت أنه لم يكن ينظر إلى اللغة كأداة نقل جامدة، بل كمنظومة علامات متحركة، متغيرة بتغير شروط تداولها، وهو ما يجعله في صميم الفكر السيميائي حتى بمعاييره المعاصرة.

ثانياً/ تحول البنية.

الأنموذج الأول: تحول البنية من اللساني إلى غير اللساني.

في موضع آخر يقول: «والصمت باب من أبواب البيان» [٥٠]، وهذا انقلاب في البنية الاتصالية، إذ تتحول العلامة من كلام منطوق إلى غياب الكلام، لكن هذا الغياب نفسه يصبح «نصًا» مقروءًا

في ضوء السياق. هذا ما يسميه بارت بـ «الدلالة الثانية» التي تولد من غياب العنصر اللساني [٥١].

الأنموذج الثاني: التحول من البنية الخطية للخطاب إلى البنية التفاعلية.

يقول الجاحظ: «فإذا أنت تكلمت بالكلمة في غير موضعها، أو أوقعتها على غير وجهها، لم يكن لها موقع في القلب، ولم تجد إلى السمع طريقًا» [٥٢].

هذا النص يكشف وعي الجاحظ بأهمية المقام في إنتاج المعنى، فالعلامة اللغوية لا تعمل في فراغ، بل في شبكة من الظروف التي تحدد فعاليتها. هنا ينتقل من النظر إلى الخطاب بوصفه بنية خطية (تتابع ألفاظ) إلى عدّه بنية تفاعلية تتأثر بالمقام والسياق الاجتماعي والنفسي [٥٣].

في السيميائيات الحديثة، هذا يتطابق مع مفهوم البراغماتية السيميائية التي ترى أن المعنى نتاج تفاعل بين النص والمتلقي ضمن سياق معين [٥٤].

الأنموذج الثالث: التحول من أحادية المعنى إلى تعدديته.

يقول الجاحظ: «رب لفظة قد تداولتها الألسن حتى ابتذلت، فإذا أنت جدّدت معناها، أو وضعتها في غير ما وضعت له، اكتسبت رونقًا وعادت كأنها لم تُسمع من قبل» [٥٥].

هنا يقرّ الجاحظ بإمكانية إعادة إنتاج المعنى عن طريق تغيير السياق أو إعادة التوظيف، وهو ما يمثل وعيًا مبكرًا بمفهوم التعدد الدلالي،وهذا التحول يخرج العلامة من أسر المعنى الواحد الثابت إلى فضاء الدلالة المفتوحة، التي تتغير بتغير الاستعمال والمقام [٥٦].

وهذا جوهر ما نادت به السيميائيات النصية المعاصرة [٥٧].

ثالثاً / تحول الوظيفة.

الأنموذج الأول: تحول الوظيفة من التزيين إلى الإحلال.

عندما يورد الجاحظ حكاية عن خطيب أشار بيده فأغنى عن الكلام، فإن الوظيفة هنا انتقلت من كون الإيماءة مجرد عنصر مكمل للكلام إلى كونها أداة رئيسة للتواصل تحل محل الخطاب اللفظي. هذه النقلة الوظيفية تدل على وعي الجاحظ بأن أنظمة العلامات يمكن أن تعيد توزيع أدوارها في العملية الاتصالية [٥٨].

الأنموذج الثانـــي: التحول من التركيز على المتكلم إلى مراعاة دور المتلقي في إنتاج المعنى.

يقول الجاحظ: «وليس على المستمع أن يطلب من المتكلم فضلًا عن البيان إذا كان قد بلغ من الفصاحة والوضوح مبلغًا لا يحتاج معه إلى تكلف البيان، ولكن على المتكلم أن يراعي حال السامع، فيخاطبه على قدر فهمه، ويضع كلامه على مقدار عقله، فإنك إن ألقيت المعاني الجليلة إلى من لا يطيقها، كنت كمن ألقى الجواهر إلى السباع، أو كمن صب الماء في الغربال» [٥٩].

في هذا النص، ينتقل الجاحظ من التصور التقليدي للبلاغة الذي يركز على كفاءة المتكلم في صياغة الخطاب، إلى تصور تفاعلي يرى أن المعنى لا يُنتَج إلا في إطار العلاقة بين المرسل والمتلقي. فالمتكلم الناجح عند الجاحظ ليس من يكتفي بامتلاك الفصاحة، بل من يستطيع تكييف خطابه بما يتناسب مع مستوى فهم السامع وخلفيته المعرفية. هذه الرؤية تلتقي مع مبدأ التفاوض على المعنى (Negotiation of Meaning) في السيميائيات التداولية، الذي يفترض أن عملية التواصل هي نشاط تعاوني يتشكل فيه المعنى بالتفاعل بين المرسل والمستقبل [٦٠].

كما أن تشبيه الجاحظ إلقاء المعاني العميقة إلى غير المؤهلين بإلقاء الجواهر إلى السباع يؤكد أن العلامة اللغوية لا تُنتج أثرها إلا إذا وُضعت في بيئة إدراكية قادرة على استقبالها وفهمها [٦١].

فضلا عن ذلك يربط الجاحظ بين وضوح الخطاب وقدرة المتلقي على فك شفرته، وهو ما يوازي في السيميائيات الحديثة فكرة أن المعنى لا يسكن النص وحده، بل يتجسد في عملية التأويل التي يقوم بها المتلقي استنادًا إلى مخزونه الثقافي واللغوي [٦٢].

وهنا يظهر أن الجاحظ يسبق بكثير ما طرحه لاحقًا منظرو نظرية التلقي مثل ياوس وإيزر، في عدّ القارئ/المستمع شريكًا أساسيًا في بناء المعنى.

رابعاً/ تحول الوسيط.

الأنموذج الأول: تحول الوسيط من الصوتي إلى البصري.

في وصفه لمجالس العلماء، يذكر الجاحظ: «كان نظره يغني عن منطقه»[٦٣]. هنا تتحول العلامة من وسيطها الصوتي المعتاد إلى وسيط بصري، وهو ما يتناغم مع تصنيفات بيرس للأيقونات التي تنقل المعنى عبر المشابهة أو التمثيل[٦٤].

الأنموذج الثاني: تحول العلامة من وسيط لساني إلى وسيط بصري.

قال الجاحظ: «والإشارة والغمز والرمز بالعين والحاجب واليد، كلها تقوم مقام الكلام في مواضع»[٦٥].

هنا تتحول العلامة من وسيط لساني إلى وسيط بصري/ حركي، مما يدل على وعي الجاحظ بأن التواصل لا يقتصر على اللغة المنطوقة. وهذا يوافق ما قررته السيميائيات الحديثة من أن العلامة قد تكون أي شيء يمكنه أن ينوب عن شيء آخر في موقف تواصلي[٦٦].

الأنموذج الثالث: تحول الوسيط من قناة لغوية إلى قناة غير لغوية.

قال الجاحظ: «وربما كانت الإشارة أبلغ من العبارة، والنكتة أوضح من الخطبة»[٦٧]. يتحول الوسيط هنا إلى قناة غير لغوية تملك قدرة تعبيرية أحيانًا تفوق الكلمة، ما يعكس ما يسميه رولان بارت «فائض المعنى» الذي تمنحه العلامات غير اللفظية[٦٨].

الأنموذج الرابع: تحول الوسيط من النص المكتوب إلى الأداء الشفهي.

يذكر الجاحظ كيف كان العلماء يكتبون رسائل ثم يقرؤونها بصوت مرتفع في مجالسهم، مما يحوّل النص من كونه مادة مكتوبة إلى حدث شفهي أدائي: «وكان إذا كتب أقرأه على الناس»[٦٩].

هذا التحول يشمل تغيير الوسيط من الكتابة (علامة بصرية) إلى الكلام (علامة صوتية)، وهو ما يتوافق مع منظور السيميائيات الثقافية التي ترى في الأداء انتقالًا للعلامة بين وسائطها[٧٠].

خامساً/ تحول السياق.

الأنموذج الأول: تحول الدلالة عبر السياق الاجتماعي.

عندما يحكي الجاحظ عن استعمال كلمة ما في بيئة بدوية ومعناها يختلف في

بيئة حضرية، فإنه يشير إلى أن المعنى ليس ثابتًا، بل يتغير تبعًا للمقام والبيئة الاجتماعية. هذا التحول الدلالي يعكس البعد البراغماتي في فهم العلامة [٧١].

الأنموذج الثاني: تحول البنية من الخطاب الفردي إلى الخطاب الجماعي.

في إحدى رواياته، ينقل الجاحظ قول أحدهم في مجلس عام، ثم يصف كيف تداخلت ردود الحاضرين فأنتجت خطابًا جماعيًا مشتركًا: «فتكلم القوم كلٌّ بما عنده، فصار الكلام كلامًا واحدًا» [٧٢]. هنا تتحول البنية الاتصالية من خطاب فردي إلى نص جماعي متعدد الأصوات، وهي سمة يقاربها باختين ضمن مفهوم «تعدد الأصوات» [٧٣]، كما أن البنية السيميائية تصبح أكثر تعقيدًا بتعدد مصادر العلامات.

الأنموذج الثالث: تحول البلاغة من مهارة فردية إلى البلاغة بوصفها منظومة تفاعلية بين النص والخطاب والمجتمع.

يقول الجاحظ: «والكلام إنما يُراد لمعانٍ تقوم في النفوس، فإذا لم تُحسن دلالته على المعنى، أو قصّر اللفظ عن بلوغ الغاية في الإفهام، أو كان مناقضًا لحال المخاطب، أو مخالفًا لمقامه، لم يكن بليغًا، وإن كان صاحبه من أفصح الناس لسانًا وأحسنهم لفظًا» [٧٤].

في هذا النص، ينقل الجاحظ مفهوم البلاغة من دائرة المهارة الفردية في إنتاج الكلام إلى فضاء أوسع يتمثل في منظومة تفاعلية تشترك فيها ثلاثة أقطاب رئيسية: النص، والخطاب، والمجتمع.

النص: يمثل البنية اللسانية التي تشكّل مادة الرسالة، وهو حامل العلامات والرموز.

الخطاب: هو الفعل التواصلي الذي يخرج النص من شكله الثابت إلى حالة دينامية، حيث تتفاعل العلامات مع نية المرسل ومقام التخاطب.

المجتمع: هو البيئة المرجعية التي تمنح العلامات قيمتها الدلالية والرمزية، وتحدد شروط نجاح عملية التواصل أو فشلها.

الجاحظ يدرك أن البلاغة ليست كامنة في «جمال الألفاظ» وحده، بل في قدرة العلامات على التكيّف مع المقام والغاية، بحيث تتوافق مع المعنى المقصود وحال المخاطَب. وهذا يتطابق مع مبدأ

الملاءمة السياقية (Contextual Appropriateness) في السيميائيات التداولية[٧٥]، الذي يرى أن نجاح الخطاب مرهون بانسجام العلامات مع الوضعية التواصلية بكل أبعادها.

كما أن نقد الجاحظ لفكرة أن الفصاحة اللغوية تكفي بذاتها يعكس وعيًا مبكرًا بمفهوم التفاعل الدلالي (Semantic Interaction)، أي أن المعنى يتشكل من عملية تبادلية بين النص والمتلقي، وهي العملية التي تدرسها اليوم السيميائيات التفاعلية[٧٦].

هذا التحول الفكري عند الجاحظ يجعله قريبًا من الرؤية الحديثة التي ترى البلاغة نسقًا اجتماعيًا أكثر من كونها ملكة ذاتية، بحيث تتحقق قيمتها عبر شبكة العلاقات التي تربط العلامات بالنصوص الأخرى، وبالسياق الثقافي، وبالتاريخ، وبالخبرات الجمعية للمتلقين[٧٧].

الأنموذج الرابع: تحول البنية والدلالة معًا عبر الحكاية المضمَّنة.

يورد الجاحظ قصة داخل قصة، بحيث تصبح القصة المضمَّنة علامة على معنى أعمق يتجاوز حكايتها المباشرة، كما في حكاياته عن البلغاء والفصحاء. هذا التحول يمزج بين تغيير البنية السردية (النص داخل النص) وتغيير الدلالة (المعنى الرمزي أو العبرة المستخلصة)، وهو ما يقاربه جينيت في مفهوم «التضمين السردي»[٧٨].

الأنموذج الخامس: تحول دلالي مرتبط بشروط المقام.

يذكر الجاحظ: «وإذا طال الحديث، وحسنت القصص، وتباينت المعاني، ولم يكن فيها إملال ولا إسراف، كان ذلك من البيان البليغ»[٧٩].

تحول دلالي مرتبط بشروط المقام؛ حيث يحدد طول الخطاب وتنوعه قيمة العلامة[٨٠].

الأنموذج السادس: تحول السياق إلى معيار حاكم لتناسب المبنى مع المعنى.

يقول الجاحظ: «وليس شيء أضرّ على المعاني من الإطالة في موضع الإيجاز، ولا على البيان من الاختصار في موضع الإطناب»[٨١].

يتحول السياق هنا إلى معيار حاكم لتناسب المبنى مع المعنى[٨٢].

سادساً/ تحول وظيفة.

الأنموذج الأول: تحول الوظيفة من الإخبار إلى الإقناع.

في نصه عن خطيب استعمل آيات وأمثالًا وأشعارًا، يشير الجاحظ إلى أن المقصود لم يكن نقل معلومات، بل التأثير في الجمهور وإقناعهم: «فما زال يورد ويصرف حتى مال القوم إلى رأيه»[٨٣].

هذا يعكس ما يسميه ياكوبسون بتحول الوظيفة اللغوية من «الوظيفة المرجعية» إلى «الوظيفة الإقناعية» أو «الإيحاء»[٨٤].

الأنموذج الثاني: تحول دور العلامة من وسيلة إلى أداة لفهم المعنى.

يقول الجاحظ: «والكلام إنما يُراد لمعناه، والمعنى قد يُدرك من غير لفظ»[٨٥]. يتحول دور العلامة هنا من كونها وسيلة للتسمية فقط إلى أداة لفهم المعنى عن طريق القرائن والسياقات، بما يشير إلى وعي بوظيفة الإفهام التداولي[٨٦].

الأنموذج الثالث: تحول وظيفي من الشفوي إلى الكتابي.

قال الجاحظ: «والخط قد يكون أبلغ في البيان من النطق، إذا حُسن تأليفه»[٨٧]. تحول وظيفي من الشفوي إلى الكتابي، مع إدراك قدرة النص المكتوب على تثبيت المعنى وتوسيع دائرة تلقيه[٨٨].

الأنموذج الرابع: تحول في الوظيفة نحو الانفعالية والتعبيرية.

قال الجاحظ: «وللعيون بلاغة ليست للسان، وللأيدِي صنعة ليست للفم، وللقلب حديث ليس في القول، فربّ إشارة أفصحت، وربّ نظرة أوضحت»[٨٩].

تحول في الوظيفة نحو الانفعالية والتعبيرية، حيث تؤدي العلامات غير اللفظية دورًا في نقل المشاعر يتجاوز الإخبار[٩٠].

الأنموذج الخامس: تحول الدلالة عبر الاستعارة الثقافية.

عندما يضرب الجاحظ مثلاً بحيوان أو طائر ليدل على صفة إنسانية، فإنه يقوم بتحويل العلامة الحيوانية إلى علامة ثقافية إنسانية، كما في قوله: «فلان

كالأسد في الشجاعة» [٩١].

هذه الاستعارة تمثل انتقال الدلالة من مجال طبيعي (الحيوان) إلى مجال ثقافي-اجتماعي (الإنسان)، وهو ما يسميه بارت «التحويل الأسطوري» للدلالة [٩٢].

الأنموذج السادس: تحول البلاغة كحُسن صياغة إلى فهمها كنظام علامات يتفاعل مع البنية الثقافية والاجتماعية.

يقول الجاحظ: «إنما البلاغة إصابة المعنى، وإيجاز اللفظ، وحسن الإشارة، ومعرفة مقادير الكلام، وتخيّر الوقت، وهي مع ذلك لا تتم إلا بمعرفة مذاهب القوم وعاداتهم، فإنك ربما أجدت القول وأحكمت المعنى، فإذا أنت ألقيته في غير موضعه، أو خالفت به عرف القوم، لم تجد له قبولًا ولا وقعًا في النفوس» [٩٣].

هذا النص يخرج بالبلاغة من كونها مجرد مهارة لغوية أو صنعة أسلوبية، إلى كونها نظام علامات اجتماعي-ثقافي يتفاعل مع السياق الذي يُلقى فيه الخطاب. فالجاحظ لا يكتفي بشروط البيان التقليدية مثل الإيجاز والإصابة وحسن الإشارة، بل يضيف إليها عنصرًا جوهريًا هو التوافق مع بنية الثقافة والعادات الاجتماعية للجمهور المخاطب. وفي ضوء السيميائيات، يمكن القول إن الجاحظ ينظر إلى البلاغة بوصفها شبكة من العلامات لا تُفهم إلا من الرموز الثقافية (Cultural Codes) السائدة في المجتمع [٩٤].

فالكلمة ليست مجرد وحدة لغوية، بل تحمل معها رصيدًا من المعاني والإيحاءات التي تشكّلها الخبرة الجمعية للمجتمع، وبالتالي فإن أي انحراف عن هذه الرموز قد يؤدي إلى فشل العملية التواصلية [٩٥]، كما أن إشارته إلى «تخيّر الوقت» تدل على إدراكه لأهمية البعد التداولي في الخطاب، وهو ما يتوافق مع النظرة السيميائية الحديثة التي ترى أن المعنى ليس فقط في النص، بل في شروط إنتاجه وتلقيه، بما في ذلك الزمن والمكان والحالة النفسية للجمهور [٩٦].

فضلا عن ذلك، فإن شرط «معرفة مذاهب القوم» يكشف عن فهم عميق لما يسميه علماء السيميائيات بـ

سياق العلامة (Context of the Sign)، حيث لا يمكن أن تُقرأ العلامة إلا داخل الإطار المرجعي الذي أنتجها. هذا الإدراك يجعل الجاحظ سبّاقًا في دمج التحليل الثقافي والاجتماعي في دراسة اللغة، وهو منهج ما زال يُعتمد اليوم في السيميائيات الثقافية (Cultural Semiotics) كما عند يوري لوتمان.

سادساً/ تحول الأسلوب.

الأنموذج الأول: تحول الأسلوب من النمط الثابت إلى المرن الخاضع لمقتضيات الحال.

قال الجاحظ: «والكلام على قدر حال المخاطب، وله على قدر ذلك وجوه، فربّ لفظة تصلح لموضع وتفسد في آخر، وربّ كلمة تصلح لقوم وتفسد عند آخرين» [٩٧].

تحول الأسلوب من النمط الثابت إلى المرن الخاضع لمقتضيات الحال، ما يعكس نسبية الأسلوب [٩٨].

الأنموذج الثاني: تحول من المعنى القاموسي إلى المعنى التداولي.

يقول الجاحظ: «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير» [٩٩].

فالجاحظ هنا يقرر أن المعنى في ذاته ليس نادرًا أو حكرًا على أحد، وإنما التميز في طريقة التعبير التي تُكسِب المعنى قيمته. هذا يعكس انتقالًا من مفهوم المعنى بوصفه تعريفًا معجميًا ثابتًا إلى المعنى التداولي الذي يتشكل في سياق الاستعمال [١٠٠].

من منظور السيميائيات، النص يحيل إلى أن العلامة اللغوية لا تكتسب قيمتها من مدلولها القاموسي، بل من طريقة صياغتها وأدائها داخل النسق الثقافي، وهو ما يتوافق مع فكرة إنتاج الدلالة عند رولان بارت [١٠١].

سابعاً/ تحول التأويل.

الأنموذج الأول: تحول التركيز من العلامة إلى فعل التأويل وفهم القصدية.

يقول الجاحظ: «وليس المعوَّل في البيان على اللفظ وحده، بل على أن تفهم عني مرادي، فإنّك قد تعرفه من نغمة، أو هيئة، أو سكتة» [١٠٢].

يتحول التركيز من العلامة إلى فعل التأويل وفهم القصدية [١٠٣].

الأنموذج الثاني: تحول العلامة إلى «غياب العلامة» بوصفه علامة.

قال الجاحظ: «وقد يكون الصمت بيانًا، والسكوت كلامًا إذا فُهم المراد» [١٠٤].

تحول العلامة إلى «غياب العلامة» بوصفه علامة، حيث الصمت نفسه يُؤوَّل في سياقه [١٠٥].

الخاتمة:

يُعد كتاب البيان والتبيين للجاحظ مرجعًا رائدًا في دراسة البلاغة واللغة من منظور سيميائي شامل، حيث قدم تصورًا متكاملاً لأنظمة الدلالة التي تتجاوز حدود اللفظ إلى الإشارة والعقد والخط والنصبة، ما جعله أحد المؤسسين الأوائل لعلم العلامات في التراث العربي، وتوصل البحث إلى أن الجاحظ كان سبّاقًا في بناء منظومة سيميائية شمولية، حيث دمج بين مختلف الوسائل التعبيرية في التواصل الإنساني، مؤكدًا أن البيان لا يقتصر على الكلام المنطوق فحسب، بل يشمل كل ما يكشف المعنى من إشارة وعقد وخط ورموز اجتماعية.

أبرز النتائج:

١. وسّع الجاحظ دائرة العلامة لتشمل الأنظمة غير اللسانية كالهيئة الجسدية والصمت والإيماء، وأبرز قدرة العلامة على الانتقال من معناها الحرفي إلى المجازي، ومن اللساني إلى غير اللساني، وفق مقتضيات المقام.

٢. تحولات البنية الخطابية تقوم على ثنائيات متكاملة (قول/ سكوت، إشارة/ عبارة) تتفاعل لإنتاج المعنى، والعلامة عنده تتحول وظيفتها من التزيين أو التعزيز إلى الإحلال محل اللغة في عملية التواصل،و ربط الجاحظ العلامات بسياقاتها الاجتماعية والنفسية، مما يكشف وعيًا بأهمية المقام في تحديد المعنى.

٣. بينت الدراسة الدور المحوري الذي لعبه التراث العربي، وبخاصة الجاحظ، في تأسيس مبادئ السيميائية التي أثرت فيما بعد الدراسات اللغوية والنقدية، الأمر الذي يستدعي من الباحثين العرب إعادة قراءة هذا التراث بعيون معاصرة وأدوات حديثة، لتعزيز الفهم العلمي وتحقيق الإفادة القصوى منه.

٤. خلصت الدراسة إلى أن الجاحظ مارس وعيًا سيميائيًا متقدمًا، تمثّل في رصده لأنواع متعددة من العلامات وتحولاتها، سواء على مستوى الدلالة أو البنية أو الوظيفة أو الوسيط أو الأسلوب وغيره، فكان التحول من البلاغة بوصفها حُسن اللفظ إلى البلاغة بوصفها إنتاجًا للمعنى، و التحول من البلاغة الفردية إلى البلاغة المشتركة، والتحول من اللغة بوصفها أداة نقل إلى اللغة بوصفها نسق علامات، و التحول نحو البلاغة السياقية، والتحول نحو السيميائيات الثقافية، والتحول نحو السيميائيات التفاعلية، و هذه التحولات تقارب إلى حد كبير التصورات الحديثة للسيميائية التي تركز على أن العلامة ليست مجرد رابط بين الشكل والمعنى، وإنما جسر يربط بين مكونات النص أو الصورة من جهة.

٥. أكدت الدراسة أن دمج التراث مع النظريات السيميائية الحديثة يفتح آفاقًا بحثية واعدة، تمكّن من تطوير مناهج تحليل النصوص والخطاب العربي، وتوسيع نطاق الدراسات اللسانية والبلاغية، بما يخدم الفهم العميق للغة والتواصل في المجتمع العربي المعاصر.

في الختام، تؤكد هذه النتائج أهمية العودة إلى مصادرنا التراثية مثل كتاب البيان والتبيين، ليس فقط بوصفه مرجعًا تاريخيًا، بل بوصفه موردًا حيًا متجددًا يُثري الدراسات الأكاديمية الحديثة، ويمكّن الباحثين من بناء جسور معرفية بين التراث والحداثة، ويعزز من قدرتنا على فهم آليات العلامة والتواصل التي تشكل جوهر اللغة والبلاغة في ثقافتنا.

الهوامش:

١- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون،، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م، ١/ ٧٦.

٢- الرؤية السيميائية عند الجاحظ، عدنان رسلان، مجلة التراث العربي، ٢٠١٩م، ص:٨٨.

٣- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٨.

٤- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٩.

٥- حيوان الجاحظ في محك السيمياء،أسماء البعزاوي، مجلة الخطاب، الجزائر، ٢٠٢٣م،ص:٦٩.

٦- دور البلاغة في الدعوة الإسلامية: دراسة تحليلية، إيمان محمد، مجلة العلوم الإنسانية، ٢٠١٥م، ص ٧٨.

٧- ينظر: نظرية الإشارة عند الجاحظ، محمد مشبال، مجلة علامات، نادي جدة، المجلد٧، العدد١٩٩٨،٢٦م،ص:١٥-٤٠.

٨- ينظر: في فكر أبي حيان التوحيدي، اليونان فلسفة وفلاسفة أنموذجاً، محمد همام، مجلة الدراسات العربية،٢٠٢٥م،ص:٢١٣-٢٤١.

٩- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٨.

١٠- الجذور التراثية للسيميائية: الجاحظ أنموذجًا، محمد بخوش، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، ٢٠٢٣، ص: ١٥٥.

١١- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٩.

١٢- حيوان الجاحظ في محك السيمياء:٦٩.

١٣- دور البلاغة في الدعوة الإسلامية:٧٨.

١٤- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٨٤.

١٥- البلاغة والفلسفة عند الجاحظ، أحمد فتحي حسني، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٤، ٢٠١١، ص ١١٥.

١٦- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٨.

١٧- البلاغة العربية: دراسات في النظرية والتطبيق، محمد عبد الله أبو اليزيد، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٧.

١٨- السيميائية العربية بين التراث والحداثة، فاطمة العزاوي، مجلة الدراسات اللغوية، جامعة الجزائر، ٢٠١٩، ص ٢١٠.

١٩- الجذور التراثية للسيميائية: الجاحظ أنموذجًا:١٦٢.

٢٠- مفهوم العلامة في التراث العربي: دراسة سيميائية، مجلة دراسات اللغة العربية، سعاد عبد الرحمن، جامعة بيروت، ٢٠١٨، ص ١٢٠.

٢١- الرؤية السيميائية عند الجاحظ:٩٥.

٢٢- السيميائية العربية بين التراث والحداثة:١٢٠.

٢٣- الجذور التراثية للسيميائية: الجاحظ أنموذجًا:١٦٢.

٢٤- البلاغة وعلاقتها بالعقلانية، أحمد محمود، مجلة دراسات لغوية، ٢٠١٤، ص ١٣٠.

٢٥- ينظر: السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، يوسف وغليسي، دار هومة،الجزائر ٢٠٠٥،ص٤٥-٥٢.

٢٦- اللسانيات وأسسها المعرفية،عبد السلام المسدي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٥.
٢٧- السيميائية العربية بين التراث والحداثة:٣١.
٢٨- الجذور التراثية للسيميائية: الجاحظ أنموذجًا:١٦٢.
٢٩- الرؤية السيميائية عند الجاحظ:٩٥.
٣٠- مفهوم العلامة في التراث العربي:١٢٠.
٣١- ينظر: مفاهيم موسعة لنظرية الشعر، محمد مفتاح، دار توبقال، الدار البيضاء،١٩٨٧م، ص:٧٧-٨٥.
٣٢- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٦.
٣٣- في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٨، ص: ١١٨.
٣٤- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٥.
٣٥- مدخل إلى السيميائية، يوسف وغليسي، دار الأفق، الجزائر ٢٠١٠م، ص:٥٥.
٣٦- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص:٤٩.
٣٧- في نظرية الرواية: ١١٨.
٣٨- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٧٦-٧٧.
٣٩- مدخل إلى السيميائية:٢٥.
٤٠- علم العلامات: السيميولوجيا، عبد الملك مرتاض، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٣، ص:٤٤.
٤١- دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء١٩٩٠، ص٦٢.
٤٢- البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ١١٢.
٤٣- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، دار توبقال، الدار البيضاء١٩٨٨م، ص: ٥٨.
٤٤- مدخل إلى السيميائية:٧٣.
٤٥- دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٠م، ص:١٠٢.
٤٦- البيان والتبيين، الجاحظ: ٢ / ٨٥.
٤٧- تحليل الخطاب السردي، عبد الملك مرتاض، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٦، ص:٦٣-٦٥.
٤٨- مدخل إلى السيميائية:٩٥.
٤٩- دينامية النص:١٥٦.
٥٠- البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ١٠٢.
٥١- دينامية النص:٨٣.
٥٢- البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ٨٩.
٥٣- تحليل الخطاب السردي:٩٣.
٥٤- مدخل إلى السيميائية:١٠١.
٥٥- البيان والتبيين، الجاحظ: ٢ / ٥٧.
٥٦- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،١٩٨٥م،ص:٩١.
٥٧- في نظرية الرواية: ١٤٢.
٥٨- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل،

دار الشروق،القاهرة ١٩٩٢م، ص:٢١٥.
٥٩- البيان والتبيين، الجاحظ: ٢ / ١٤.
٦٠- علم العلامات:١٢١.
٦١- مدخل إلى السيميائية:١٠١.
٦٢- تحليل الخطاب الشعري:٤٤.
٦٣- البيان والتبيين، الجاحظ: ٢ / ٤٤.
٦٤- السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها:٦٧.
٦٥- البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ٧٥.
٦٦- مدخل إلى السيميائية:٣٢.
٦٧- البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ٧٦.
٦٨- بلاغة الخطاب:١١٩.
٦٩- البيان والتبيين، الجاحظ:٣ / ٥٥.
٧٠- مدخل إلى السيميائية:٨٩.
٧١- جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي القديم، كمال أبو ديب، دار النهار، بيروت ١٩٨١م،ص:٥٣.
٧٢- البيان والتبيين، الجاحظ:٢/ ١١٨.
٧٣- تحليل الخطاب الشعري:١٠٤.
٧٤- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١١٤.
٧٥- مدخل إلى السيميائية: ١٣٢.
٧٦- دينامية النص:٢٠١.
٧٧- تحليل الخطاب السردي:١٥٩.
٧٨- تحليل الخطاب الشعري:١٣٢.
٧٩- البيان والتبيين، الجاحظ:٢/ ١٤٠.
٨٠- مدخل إلى السيميائية: ٦٩.
٨١- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١٢٠.
٨٢- دينامية النص:١٤٤.
٨٣- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١٤٤.
٨٤- بلاغة الخطاب وعلم النص:٢١٧.
٨٥- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ٨٨.
٨٦- نظرية العلامة في النقد العربي القديم، عبد الملك مرتاض، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٥م،ص: ٥٤.
٨٧- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ٩٠.
٨٨- تحليل الخطاب الشعري:٨٧.
٨٩- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١٠٢.
٩٠- اللسانيات وأسسها المعرفية:١٨٧.
٩١- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ٢١٠.
٩٢- في نظرية الرواية:١٤٠.
٩٣- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١٠٢.
٩٤- مدخل إلى السيميائية:١١٣.
٩٥- في نظرية الرواية:٢١١.
٩٦- تحليل الخطاب الشعري: ٧٣.
٩٧- البيان والتبيين، الجاحظ:٢/ ١٥٠.
٩٨- جدلية الخفاء والتجلي:٩٥
٩٩- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ٤٥.
١٠٠- مدخل إلى السيميائية:٧٧.
١٠١- دينامية النص:١١٢.
١٠٢- البيان والتبيين، الجاحظ:١/ ١١٠.
١٠٣- علم الأسلوب، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨م، ص:٢٠٣.
١٠٤- البيان والتبيين، الجاحظ:٢/ ٢٠٠.
١٠٥- نظرية العلامة:١٢١.

المصادر والمراجع:

أولاً/ الكتب:

١- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون،، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢- البلاغة العربية: دراسات في النظرية والتطبيق، محمد عبد الله أبو اليزيد، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣- السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، يوسف وغليسي، دار هومة،الجزائر ٢٠٠٥م.

٤- اللسانيات وأسسها المعرفية،عبد السلام المسدي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

٥- مفاهيم موسعة لنظرية الشعر، محمد مفتاح، دار توبقال، الدار البيضاء،١٩٨٧م.

٦- في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٨م.

٧- مدخل إلى السيميائية، يوسف وغليسي، دار الأفق، الجزائر ٢٠١٠م.

٨- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٨٥م.

٩- علم العلامات:السيميولوجيا، عبد الملك مرتاض، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٣م.

١٠- دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء١٩٩٠م.

١١- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٨م.

١٢- تحليل الخطاب السردي، عبد الملك مرتاض، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٦م.

١٣- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،١٩٨٥م.

١٤- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الشروق،القاهرة ١٩٩٢م.

١٥- جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي القديم، كمال أبو ديب، دار النهار، بيروت ١٩٨١م.

١٦- نظرية العلامة في النقد العربي القديم، عبد الملك مرتاض، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٥م.

١٧- علم الأسلوب، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨م.

ثانياً/ البحوث المنشورة في المجلات.

١- الرؤية السيميائية عند الجاحظ، عدنان رسلان، مجلة التراث العربي، ٢٠١٩م.

٢- حيوان الجاحظ في محك السيمياء،أسماء البعزاوي، مجلة الخطاب، الجزائر، ٢٠٢٣م.

٣- دور البلاغة في الدعوة الإسلامية: دراسة تحليلية، إيمان محمد، مجلة العلوم الإنسانية،

٢٠١٥م.

٤- نظرية الإشارة عند الجاحظ، محمد مشبال، مجلة علامات، نادي جدة، المجلد٧، العدد ٢٦، ١٩٩٨م.

٥- في فكر أبي حيان التوحيدي، اليونان فلسفة وفلاسفة أنموذجاً، محمد همام، مجلة الدراسات العربية،٢٠٢٥م.

٦- الجذور التراثية للسيميائية: الجاحظ أنموذجًا، محمد بخوش، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، ٢٠٢٣م.

٧- البلاغة والفلسفة عند الجاحظ، أحمد فتحي حسني، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٤، ٢٠١١م.

٨- السيميائية العربية بين التراث والحداثة، فاطمة العزاوي، مجلة الدراسات اللغوية، جامعة الجزائر، ٢٠١٩م.

٩- مفهوم العلامة في التراث العربي: دراسة سيميائية، مجلة دراسات اللغة العربية، سعاد عبد الرحمن، جامعة بيروت، ٢٠١٨م.

١٠- البلاغة وعلاقتها بالعقلانية، أحمد محمود، مجلة دراسات لغوية، ٢٠١٤م.